جامعة المسيلة ــ قسم التاريخ ــ أولى ماستر ــ تاريخ الجزائر الحديث

ـ مقياس :قضايا في تاريخ الجزائر الحديث

عنوان المحاضر: ظاهرة القرصنة بالجزائر

مقدمة

كثيرا ما تتردد على الألسن وفي الكتابات التاريخية قضية القرصنة الجزائرية أو العثمانية أثناء العهد العثماني . وفي كثير من الأحيان يتم التعامل معها على أساس الاعتزاز والتمجيد والقوة وفرض الهيبة الجزائرية في المتوسط ، ومنهم من ينظر إليها على أنها تحمل شيء من اللصوصية وهي أشبه بقطاع الطرق البحرية وينخرط في هذا الاتجاه بشكل أكثر الكتابات الأوربية والمعادين لها حتى من العرب وللوقوف على هذه الظاهرة لابد من تناولها في بعدها السياسي والعسكري والاقتصادي الملازم لتلك المرحلة .

كلمة القرصنة [1]:

إن كلمة القرصنة أخذت عدة ألفاظ لاتينية قديمة منها : Activité corsair و Piraterie ، Corsaro وكلها تدل على ممارسة العمل المسلح في البحر ومهاجمة سفن الأعداء ، وبالتالي فاشتقاق المصطلح له بعد أوربي ومرتبط أكثر بالسطو والهيمنة والاستيلاء على ما تحمله السفن الأخرى . وهذا المعنى أسقطته الدول الأوربية على النشاط البحري للدولة العثمانية في الجزائر من خلال كتاباتها وتقارير قناصلها. وبالتالي ارتبط

[1] ـ استعمل هذا المصطلح الأوربيون بالدرجة وبشكل مستهدف ، إضافة إلى بعض الكتاب العرب أمثال : عزيز سامح التر ، وحتى كتابات جزائرية دون اعتبار لبعد المصطلح .

هذا المفهوم بالسلب والسطو والنهب والاستيلاء واللصوصية وقطاع الطرق البحرية لدى شرائح واسعة (عامة وكتاب ومؤرخين ....) وحتى الترجمة للكلمات اللاتينية السابق ذكرها بالمفهوم الاصطلاحي اللاتينيى للعربية كانت غير دقيقة في سياقها التاريخي وهي أقرب للحرب البحرية .

ولكن واقع السلوك البحري العثماني يختلف عن هذا المفهوم ، لأن هذا العمل كان في ظروف سياسية معينة تكتنفها الصراع المسيحي الإسلامي ، وتحالفات بين دول ضد أخرى ، وهذا فرض نوعا من استخدام مختلف الوسائل العسكرية ومنها العمل العسكري البحري لمواجهة الأعداء مثل : فرض الحصار الاقتصادي عليها أو عرقلة النشاط التجاري البحري. أو مهاجمة السفن التابعة للعدو ، وهذا السلوك يوحي لنا أنه عمل منظم ومرتب من قبل دولة ضد أخرى في إطار الصراع القائم مما يخرج هذا النشاط من اللصوصية إلى الممارسة العسكرية في بأسلوب معين في البحر كالحرب الخاطفة على السفن والاستيلاء عليها ، وربما مما يدلل على ذلك أن هذا العمل كلن يشمل السفن التي لا ترتبط بالجزائر معاهدات أو اتفاقيات ، وأحيانا تنطلق سفن جزائرية من موانئ فرنسية لارتباطها مها بمعاهدات ضد اسبانيا .

ومن هذا المنطلق أطلق العثمانيون على نشاطهم في البحر المتوسط بالنشاط البحري أو الجهاد البحري لأنه كان يدخل في إطار الدفاع المستمر عن البلاد ، وخاصة أن نشاط السفن المسيحية وفرسان القديس يوحنا في المتوسط وهاجمة السفن الإسلامية وحتى السواحل الليبية ، مما جعل حالة التأهب ورد الفعل قائمة ومستمرة من قبل العثمانيين ، وفي نفس الوقت الاستجابة لنداءات الاستغاثة المقدمة من قبل مسلمي الأندلس الذين تعرضوا لحملات قتل وتشريد وا إبادة جماعية وطرد لا نظير في التاريخ

الحديث. فكلمة الجهاد البحري أو النشاط البحري كانت هي التي تشكل البعد المفاهيمي والخلفية المهنية لربان السفينة أثناء تأدية مهامهم . ويعتبر نفسه يمارس نشاطا مقدسا ، أو عملا عسكريا مهنيا مفوضا من قبل الدولة العثمانية ويخضع لنظام وترخيص وحماية وله عائدات للدولة وموجه ضد دول ورعايا معينين ، وليست لصوصية مستباحة . وهذا ما يذهب إلية توفيق المدني بأنها حري اقتصادية بين الدول المتعادية [2]

مبررات الجهاد البحري :

ومن العوامل التي جعلت الجهاد البحري قائما في الجزائر العثمانية :

1 ـ حالة الخطر الدائم في المتوسط على أيدي البحارة المسيحيين وخاصة فرسان القديس يوحنا

2 ـ احتلال الكثير من المدن في شمال إفريقيا والجزائر تحديدا (دلس ن جيجل ، شرشال ن وهران ، بجاية ، ....) فصار الاحتلال أمرا واقعا وتعرض الممتلكات والأعراض والبلاد للنهب والسلب على أيدي الاسبان

3 ـ حالة التشتت والفوضى وغياب أي سلطة زمنية تتكفل بالدفاع عن سكان الجزائر مما حدا بهم الاستعانة بالقوة الإسلامية القائمة وفي مقدمتهم البحارة العثمانيين الذين كانوا يجوبون المتوسط واستمرت العملية في ظل قيام الحكم العثماني .

---

2 ـ أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وا إسبانيا 1492 – 1792 ، ط 3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ص 72 .

4 ـ ملاحقة القوى المسيحية للأندلسيين الفارين في شمال إفريقيا وتعريض حياة الكثير منهم للخطر في البحر وحتى على السواحل .

5 ـ كانت حالة التأهب الدائم لمواجهة الأعداء من الدول الأوربية تقتضي إقامة خط دفاعي متقدم متمثلا في النشاط البحري المستمر والدائم لأن الحملات الأوربية لم تتوقف طيلة الحكم العثماني .

وعموما فإن الصراع القائم في المتوسط كانت له ظروف تاريخية وسياسية وأساليب معينة من العمل العسكري ومن بينها ما أطلق عليه القرصنة من قبل الدول الأوربية وهي التي كانت تمارسه قبل دخول العثمانيين للجزائر واستمرت عليه طيلة قرون ، ولكن الساسة الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة إضافة إلى دور رجال الكنيسة الذين حاولوا إلصاق هذه الصفة من اللصوصية والسلب على الجزائريين في المتوسط لتأليب الشعوب الأوربية عليها من جهة ، وتبرير الاحتلال للجزائر والدليل على ذلك التحالفات المتعددة ضدها .